دراسة نقدية

شعر الطويراني

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

أسلفت القول في العدد الماضي من « الرسالة » عن ترجمة حسن حسني الطويراني باشا الشاعر الصحافي المصري المولد ، التركي الأصل ، واليوم أكتب هذه الكلمة — وفاء بالوعد — في شعره الذي جمع في ديوانه « ثمرات الحياة »

وديوان الطويراني ضخم الحجم مملوء بكثير من القصائد الطوال والمقطعات والموشحات والأدوار والزجل ، وقد طبع بمطبعة إدارة الوطن سنة ١٣٠٠هـ ، ثم سافر الشاعر إلى الآستانة في العام نفسه ، ووكل أمر الإشراف على طبع الديوان إلى نائب له ، فلم يعتن بتصحيح الجزء الثاني ، فحصلت غرائب في التحريف والتصحيف والسهو ، وفقدت أصول الديوان حين وصل الطبع إلى صفحة ٢١٦ ؛ وهنا علم الشاعر بما حصل فبعث بنسخة أخرى من الأصول لتتميم الأبيات . وبقي في الآستانة ثماني سنوات والديوان لم يكمل طبعه . فعاد إلى الأسكندرية في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٠٨ ، ووصل إلى القاهرة في الثاني والعشرين من الشهر نفسه ، ولما استراح من السفر أخذ يصحح الديوان استعجازاً لإخراجه (ولكنه وجد أن تصحيح الأخطاء يستلزم صرف الأوقات المديدة وتحمل المشاق العديدة ، وأن الاهتمام بتصحيح ما وقع فيه من الخطأ والخطل ، شيء زائد على الأمل والعمل) ، فختمه بمعذرة إلى القراء ، وأنجزه وأخرجه في ٢٠ محرم سنة ١٣٠٩هـ

ويظهر من شعر الديوان والإمعان في مطالعته أن الشاعر متأثر بالمذهب التقليدي إلى حد كبير ، فهو يحذو حذو شعراء عصره الذين كانوا أصداء بالية للشعر العربي القديم ، فأغراضهم أغراض السابقين ، وأبوابهم ومذاهبهم هي أبواب الأولين ، ومذاهبهم مع اختلاف الأحوال وتباين المقتضيات

ولم لا يكون شعراء عصر الطويراني كذلك ، وأمامهم محمود سامي البارودي باشا كان مقلداً إلى حد بعيد حتى في مطالعه ومواقفه وتشبيهاته بل في عباراته ؟ ولكن البارودي كان يمتاز عليهم جميعاً بالطبع العربي الأصيل في قرض الشعر ؛ فهو بارع في المحاكاة ، حتى ليخيل إليك وأنت تقرؤه أنك تقرأ شعراً قديماً لم تفسده لوثة الأعاجم وفساد الملكات

ويظهر المذهب التقليدي في شعر الطويراني واضحاً ، حتى في طريقة تبويبه للديوان ؛ فقد قسمه إلى أربعة وعشرين باباً : الأول منها في الإلهيات ، وقدّمه لشرف موضوعه ، وهو الحمد والثناء على الله تعالى مفيض هذا الوجود . ولم يَعْدُ في هذا الباب أن يكون « نظاماً » لا شاعراً ؛ فلم يصل إلى أعماق الوجود ولم تتجل عليه فيوض الحكمة وإشراقاتها ، ولم تزد إلهياته على أن تكون خطوات عابرة نظمها في قالب من قوالب عصره . وقد حاولت أن أعرض أحسن ما في هذا الباب ، فلم أجد غير هذه الأبيات :

يامالك الروح يشقيها ويسعدها ... وحافظ الجسم إفناء وإبقاء

أوجدت من عدم روحي وكنت لها ... أوقات لم أدر فيها الطين والماء

متعتني في صفاء النفس منفرداً ... مطهراً لم أخف رجساً وبأساء

أما الباب الثاني ففي المدائح النبوية وسماها « النبويات » ، كما سميت قصائد الكميت « بالهاشميات » ، وهي قصائد ليس لها في الشعر من شرف إلا أنها صنعت للرسول عليه السلام ! فلا تجد فيها قوة حب الكميت ولا متانة البوصيري وحكمته في ثنايا المديح

والباب الثالث في الحماسة والفخر ، وقدم هذا الباب (لعلة وفاء حقوق النفس التي لا تعرف حق غيرها إلا بعد معرفة ناموسها ؛ فإن النفس إذا جهلت حقها جهلت حقوق غيرها

في الجزء الأول وبين رسالته وانتصار دعوته في الجزء الثالث .

صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، وصورة لما يهجس في الضمائر والأخلاد ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء وصورة للبيئات والأفراد في تلك الحياة ... وذلك كله حسب كتاب ليكون عملاً يستحق التقدير . وإنه للكتاب الأول في أعمال الدكتور — حسبما أعتقد — لا يوازيه في هذا الميزان إلا كتاب « الأيام »

(حلوان) سيد قطب

٢١٠٣٣

بالطبع فلم تقم بها) ، وهذا تعليل لطيف لشعر الفخر ، ولكن يشترط ألا يغالى فيه ، وإلا صار إسرافاً وكذباً . ولقد أسرف الطوبرانى فى هذا الباب إسرافاً كثيراً ووضع فيه ما ليس منه ، كالأبيات التالية التى هى أشبه بشعر الحكم منها بشعر الحماسة :

الناس فى الدهر أنباء وأخبار والكون كونان أعيان وآثار
لا خير فى العيش إن لم يصطحب شرفاً
ولا اقتحام الردى دون العلا عار
اعمل مع الصبر ما يرضى الكمال به
واكتم مصابك إن الدهر دوار
لا يرغم الدهر إلا من يطيش له فاعتز بالنفس إن خانتك أنصار

وقد يكون فى هذا الكلام فخر خفى . فهو يأمر الناس بما كمّل هو به نفسه من اصطحاب الشرف واقتحام الردى والصبر وكتمان المصاب والاعتزاز بالنفس حين يخون النصير

وأكثر ما يفتخر الطوبرانى فى هذا الباب بآبائه الترك ، فهو يتعصب لهم على العرب الذين حفظ لغتهم وآمن بنبيهم ؛ وقد يصل به التعصب إلى إنكار كل فضيلة للعرب وتجريدهم من كل مكرمة . ولا شك أن الأحوال السياسية فى عصره ، والخلاف بين العرب والترك ، ومحاولة الأولين التخلص من حكم الآخرين ، وقيام الشعراء من العرب بمهاجاة الترك ؛ لا شك أن ذلك كله كان حافزاً للطوبرانى على الاجتراء على للعرب وتنقصهم . ووجد فى صحفه ومجلاته التى أنشأها أو اشترك فى تحريرها مجال الكلام واسعاً ؛ فأحفظ ذلك عليه كثيراً من الشعراء العرب كالشيخ إبراهيم اليازجى

ولقد نقل الطوبرانى الخلاف بين العرب والترك إلى خلاف بين الأصل السامى والأصل اليافثى . فهو يقول :

أرى الفخر للأتراك من عهد يافث
ومن عهد افراسياب ليس مرسناً
فلا شهم فى الدنيا كجنكيز قاهر
ولا تار أغلى من طغا جار إذ طغى

ويقول من قصيدة أخرى :

فإنا بنو عثمان لا الضيم عندنا يعان ولا يوماً على جارنا يقضى

وهو هنا يرد على ما رماهم به العرب من الظلم وانتقاض الجوار ، ولما استفزه اليازجى بالشعر المر الموجع فى تعداد مظالم الترك رد بقصيدة ميمية طويلة خانته فيها لباقته ، فرمى العرب بما لا يليق أن ترمى به أمة كريمة عزيزة من دولة كان يرتفع فوقها علم الخلافة الإسلامية ، حيث قال :

ملكنا كم حيناً سوائم جهلا تتيهون فى دوّ الهوان نعائما
فلما اكتسى العارى وأشبع جائع
وأصبح مخدوماً فتى كان خادماً
جهلتم حقوق الترك وهى جلية ولم تحفظوها ، شيمة الحر ، أنعما
وشوهتم الحسنى بما قد بدا لكم ،
وقلتم كذا كنا وكنتم وبئس ما . . .

وقد طالت هذه القصيدة وجمح القلم من يد صاحبها ، ولكنه عاد فى النهاية فلطف الكلام بقوله : —

وقد أنزل الله المؤاخاة بيننا فلا تجعلوها أخوة تسفك الدما
وأنا بكم حقاً كما أنتم بنا كلانا أخ فى الدين يبغى التلازما
ولا فضل إلا بالتقى وهو بيننا سواء وفضل الله خص وعمما
وكل أبوه فى الحقيقة آدم فمن شاء تذليلا لأصل فآدما
وأما نبى الله فالكل قومه وأكرمه من لم يسئه وأكرما
نصحت بنى مصر وحذرت كلهم
وقلت المقال الحق لكن تجرما

ولو سلك الطوبراني هذا المسلك الرقيق من أول الأمر ما تأججت نار المهاجاة بين شعبين أخوين مسلمين ، يرجى من تآلفهما للاسلام خير كثير

أما قصيدته السينية التى رد بها على سينية الشيخ إبراهيم اليازجى ، ففيها من الفخر كثير ، ولكن فيها على العرب تجنياً صارخا . ومنها هذه الأبيات : —

والترك نيران اللظى فاقدم ورم إن كنت قابس
والترك قد تركوا أبا لك ومثله بالخزى ناكس

* * *

لولا بنو عثمان ما نبست لشرق نوابس
سهروا ونمتم والتقوا وحشا وأمسيتم أوانس
برزوا لساعرة الوغى وهمامكم كالظبى كانس

ولكن هذه الأيام قد ولت وانتهى زمان الملاحاة ، ونرجو أن يكون المسلمون ، على اختلاف أجناسهم ، قوة يعمل حسابها ويخشى بأسها . ولعلهم فاعلون ذلك إن شاء الله .

أما فخر الطوبرانى بنفسه ، لا بجنسه ، فكثير فى شعره وقد أعانه على ذلك نفس أبية وهمة قوية ، فقد تنقل فى البلاد وطوف فى الآفاق ، ولقى الخير والشر ، وشرب الحلو والمر ، ولكنه ظل عزيز النفس . اسمعه يقول : —

على أننى إن لان قومى ظالم وإن طالبونى بالتذلل ظالم

وأنى لأستاق الكريهة باسما وأجهل عقباها وأنى لعالم

إلا أنه قد يفرق فى الفخر ويغالى فيه على عادة شعراء عصره .

فترى الإسراف فيه واضحاً ، والكذب فيه ظاهراً كقوله :

خلقت للسيف والقرطاس والقلم

فالدهر عبدى وأهل الدهر من خدمى

والشطر الثانى سخيف مرذول وما أشبهه فى السخف بقول ابن سناء الملك

وأنك عبدى يا زمان وأننى على الرغم منى أن أرى لك سيداً

وسبحان من غير نظر شعراء اليوم إلى الفخر ، فلو أن واحداً منهم قال مثل هذا القول لقال الناس : هذا ناظم كذاب !

أما باب المديح فيشمل جزءاً كبيراً من الديوان . فقد مدح السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد والخديو اسماعيل باشا ، والخديو توفيق باشا ، كما كانت له مدائح وصلات أدبية ومكاتبات ومساجلات مع اسماعيل بك عاصم والأديب الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى والشاعر الأديب عبد الله فريج

أما غزله فيظهر فيه التصنع والتقليد للقدماء حتى فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها وذكر المرابع والعيس والأماكن العربية كمنعرج اللوى . فيقول :

تعرفت أطلال الحمى بعد مجهل فأوقفت عيسى بعد طول الترحل

ويقول :

سقى الله صوب القطر منعرج اللوى

وحيى به دار الشبيبة والهوى

ويقول :

أمن دار سلمى دراسات المعاهد

بكيت طلولا بعد بعد المعاهد

ويقول :

بانت سعاد فرغد العيش منكود وودعت فجليد القلب مكمود

وشتان بين المحاكاة والطبع ، وبين الصوت والرجع !

وشعر الطويرانى لم يسلم من الزحافات والعلل والضرورات الشعرية التى لجأ إليها لجوءاً كثيراً . فهو يمد المقصور ويقصر الممدود ويجزم المرفوع ، ويسكن أواخر الكلمات فلا يعربها ، ويقطع همزة الوصل ، ويصل همزة القطع ، ويأتى بعيوب السناد ويمنع المصروف من الصرف كقوله فى صفحة ٢٤٢

والورق تسجع فى الغصون كأنما

هاتيك ـ غيد وتلكم الأوتار

فمنع من الصرف كلمة غيد وحقها التنوين

وقوله فى ص ٩

لأن التلازم بين ذات وعارض من الكون لا يخفى لمن يتبصر

بإسكان الميم من كلمة التلازم

وقوله فى ص ١٧

يا نبى الهدى عليك سلام لا ابتداء له ولا انتهاء

بقطع همزة الوصل من كلمة إنتهاء

وقوله ص ٨

يا إله الخلق إرحم عاجزاً مد للألطاف نحو الباب يد

بقطع همزة الوصل من الفعل ارحم

وقوله :

ولا والله لا فى العلم خير ولا فى الجهل شرٌ ولا مخاوف

فمنع كلمة شر من التنوين وذلك قبيح ، ولو قال « ولا فى الجهل شرٌ أو مخاوف » لسلم من الضرورة القبيحة

والطويرانى نسبة إلى طويران وهى بلد وكان يكاتب ابن عمه على بك عطا الله وهو فيها

وبعد فقد أتاح لى الأديب الفاضل على الشوكانى ببغداد كتابة مقالين عن الشاعر الصحافى التركى المصرى حسن حسنى الطويرانى باشا ؛ فله الشكر على ما أتاح ؛ ولصديقى محمود بك نصير نائب المنصورة أجزل الشكر على تفضله بإعارتى ديوان الشاعر . فلولا ذلك ما ظهر هذا المقال .

محمد عبد الغنى حسن

بتاريخ ٢٦ ـ ١٠ ـ ٩٤٣ حكم فى الجنحة ٤٢٦ عسكرية الدرب الأحمر سنة ١٩٤٣ بحبس المتهم ٣ شهور شغل وتغريمه مائة جنيه والنشر والتعليق والداق والمصادرة لأنه فى ١٧ ـ ١٠ ـ ٩٤٣ بدائرة الدرب الأحمر حاز خيوط غزل بدون تصريح

إعلان

سيشهر سلاح الأسلحة والمهمات الملكى بالمعادى يوم ١٥ / ١ / ٩٤٤ بيع متخلفات ورش الترزية والخيامية .

ويمكن الاطلاع على الشروط بالسلاح المذكور ١٦٨٢